ISLĀMIYYĀT 33 (2011): 77 - 84

الشيخ أبو بكر الأشعري الماليزي ومنهجه في كتاب ''إينتيساري تفسير جزء عم''

عدنان محمد يوسف

ملخّص البحث

يعتبر الشيخ أبو بكر الأشعري أحد أعلام النهضة الإسلامية الحديثة التي دعت إلى إصلاح الحياة الدينية بين المجتمع الإسلامي في هذه البلاد، ودفعها نحو التقدم الحضاري المنشود. وقد أسهم بكل ما لديه من وسع وطاقة في سبيل تحقيق هذه الغاية بلسانه وقلمه وسلوكه. وهذا الكتاب الموسوم بـ ''إينتيساري تفسير جزء عم'' – وهو عبارة عن تفسير مفصل لجزء عم من القرآن الكريم- من جملة ما قدمه قلمه لمجتمعه ليكون منارا لهم في تصحيح الأفهام وتنشيط الهمم في مواصلة العمل. وقد استخدم في هذا الكتاب منهجا متميزا يتوافق مع أهدافه التي من أجلها ألف هذا الكتاب. وهذا البحث يهدف إلى كشف هذا المنهج وبيانه مع الأمثلة من واقع الكتاب كما يحاول دراسته دراسة تأصيلية لمعرفة مدى ارتباطه بمناهج التفسير المعاصرة له، ومدى تأثر صاحبه بأعلام المفسرين في عصره. فهو بحث مكتبي يعتمد على دراسة متأملة للكتاب ومتابعة العناصر المتعلقة بالموضوع من الكتب المتخصصة في حركة التفسير ومناهجه. وقد توصل البحث إلى أن المؤلف قد جمع في تفسيره بين منهج السلف ومتطلبات العصر كما يتبين أن له علاقة وثيقة بحركة التفسير المعاصرة له وأعلامها. ومما يرجى من هذا البحث التعريف بعلَم من أعلام المفسرين الماليزيين وتقديم صورة عن حركة التفسير في هذه البلاد النائية عن مراكز العلم الإسلامي وأعلامه من المفسرين، وموقعها من التيّار العام في هذا العلم.

ABSTRACT

Al-Sheikh Abu Bakar al-Ashaari is considered as one of the modern Islamic scholars who are very active in calling for reformations in religious life of Muslim society in Malay Archipelago, in order to create the civilised society as needed. He devotes all his efforts and strengths to achieve this hope through the speechs, books, and public services. The book, 'Intisari Tafsir Juzu' Amma', written by him is the complete exegesis of the last chapter of al-Qur'an and it is one of his contributions to society through writing to correct people understanding and raise their conciousness and spirit to achieve the ambition. He uses an interesting approach and special methodology in his book to reform the religious life of Muslim society in this region. The purpose of this research is to study the methodology implemented by al-Sheikh Abu Bakar Ashaari in his book and present it to readers with the examples. It is also to analyse the relation between his methodology and other scholars methodology in the context of exegesis discipline in the global level. It is a library research which is based on the deep study on the book and related analytical aspects through historical exegesis books. This study resulted that al-Sheikh Abu Bakar Ashaari has combined Salaf methodology and current need of society. The study also found that his methods have strong relation with the development of exegesis discipline and its scholars. Hopefully this research could highlight one of Malaysian exegesis scholars and show the real view about the Qur'anic exegesis movement and its standing in the context of development generally in this region which is located far from knowledge evolution centre and Islamic scholars especially Qur'anic interpretators.

Keywords: Interpretors methodology, exegesis movement, current need, renewal, progress

نبذة عن حياة الشيخ أبو بكر الأشعري

ولد الشيخ أبو بكر الأشعري سنة 1322هـ/1904م، في قرية ''باين لفس''، بجزيرة فينغ (Bayan Lepas, Pulau Pinang) شمال ماليزيا. (هارون 1993: 13) واسمه الحقيقي أبو بكر ابن أشعري إلا أنه استعمل اسم أبو بكر الأشعري بعد عودته من مصر واشتهر به. وقد تلقّى تربية دينية منذ عهد مبكّر من طفولته. وتنقل بعد ذلك بين المدارس االدينية والملايوية والإنجليزية حول جزيرة فينغ لمتابعة دروسه الرسمية. (هارون 1993: 13) ومن أشهر المدارس التي كان يتعلم فيها الشيخ مدرسة المشهور الإسلامية التي اشتهرت حينئذ بمدرسة دينية حديثة تجمع بين المواد الدينية والعلوم العصرية بالإضافة إلى الفنون المهنية، (عدنان وذوالحلم 2007: 67-86) كما اشتهرت هذه المدرسة بتبنيها الأفكار الإصلاحية الدينية من خلال أعلامها المدرسين والقائمين عليها أمثال الشيخ السيّد أحمد الهادي والشيخ طاهر جلال الدين والشيخ عبد الله الغدامسي المغربي.

وقد غادر الشيخ بلده لمواصلة دراسته في الأزهر الشريف عام 1925م بمصر. واستغلّ فترة وجوده هناك للدراسة والاتصال بالعلماء والمفكرين وممارسة النشاطات الفكرية والدعوية والاجتماعية. ففي عام 1930م قام مع بعض زملائه الماليزيين والإندونيسيين بتأسيس جمعيّة تضمّ جميع الطلبة الملايويّين من الماليزيين والإندونيسيين في مصر وسموها ''جمعية القاهرة الملايوية''. وعين الشيخ رئيسا للجمعية وأصبح مندوبا لها في المؤتمر الإسلاميّ المُقام في القدس لتلك السنة. (هارون 1993: 13؛ محمد رضوان 2004) وبعد سبع سنوات قضاها بكل جدّ وكدّ في الطلب والتحصيل أنهى الشيخ دراسته في الأزهر الشريف فرجع إلى بلده عام 1932م. (هارون 1993: 13)

وفي بلده فينغ بدأ الشيخ ينشر فكره الإصلاحي ودعوته إلى فهم الدين بما يوافق ما عليه السلف الصالح المستمد من القرآن والسنة وما يتفق مع متطلبات العصر مما يدعو إلى الاجتهاد وتحرير العقل من التقليد الأعمى للعلماء مهما كانت درجاتهم ومذاهبهم. وهذه الفكرة التي دعا إليها الشيخ يخالف ما عليه أهل بلده فلم يلق قبولا فيه فهاجر إلى البلد المجاور قدح (Kedah)، ولاقى من أهله ما لاقاه من أهل فينغ ولم يزل على حاله حتى سمع به أعيان العلماء ورجال الدعوة الذين كانوا على نفس النهج في البلد المجاور برليس (Perlis)، فدعوه إلى هذا البلد لينضمّ إليهم في العمل الدعويّ وبناء المجتمع الإسلامي

Bab 9.indd 77 12/19/2011 2:18:41 PM

المتحضّر. وتم ذلك في عام 1936م حيث عيّن مدرسا دينيا وإماما أكبر في مسجد علوية بعاصمة برليس كانغر (Kangar). (هارون 1993: 14؛ تاج الدين 1993: 10)

وجد الشيخ في مقره الجديد جمهورا مستجيبا لدعوته وإخوانا متعاونين في العمل فأصبح الفكر الإصلاحي الذي كانوا يدعون إليه هو السائد في هذا البلد وقويت شوكته بين القائمين على إدارة البلد. وبلغ بهم النفوذ إلى أن نجحوا في وضع هذا الفكر الإصلاحي الذي أطلقوا عليه اسم أهل السنة والجماعة في دستور البلد الذي نص على أنه المذهب الرسمي للدين الإسلامي للبلد وبقي العمل به إلى يومنا هذا. وما زال الشيخ يواصل عمله بين تدريس وتأليف وتوجيه العاملين في الدعوة والإصلاح ولاقى من مجتمعه ما لاقاه من موافقٍ ومعارض ولم يؤثر ذلك في مضيه نحو الأمام ولم تتخلّف خطاه يوماً إلى الوراء إلى أن لقي ربه راضياً مرضيًّا في 7 أبريل 1970م الموافق 30 محرّم 1390هـ في بورت ديكسون (Port Dickson) وله من العمر 65 سنة، رحمه الله رحمةً واسعةً. (هارون 1993: 14-15)

التعريف بكتاب ''إينتيساري تفسير جزء عم''

ألف الشيخ أبو بكر الأشعري هذا الكتاب وهو يهدف من خلاله التوصّل إلى عدّة أهداف، منها:

1. إن هذا الجزء من القرآن الكريم يحتوي على سور قصيرة يحفظها أغلب المسلمين في العالم الإسلامي ويدرسها أبناؤهم في مدارسهم، وليتم انتفاعهم بما حفظوا وما درسوا جاء هذا الكتاب ليوضّح لهم ما احتوت عليه تلك السوَر من معان ودروس وعبر ترشدهم وتهديهم إلى ما يرضاه لهم الله سبحانه وتعالى في دنياهم وأخراهم.
2. وإن هذه السوَر كما لا تخفى علينا هي أكثر ما يعيد المسلمون قراءته ويكرّرها في أورادهم وعباداتهم اليومية خصوصا في صلواتهم الخمس. ومما لا غبار عليه أن خشوعهم في هذه العبادات وتعايشهم مع هذه الأعمال وانتفاعهم بها يزداد كلما يزداد فهمهم ومعرفتهم بما قرأوا وهذا ما يهدف إليه الكتاب.
3. إعداد كتاب مناسب يعتمد عليه أساتذة المدارس التي تقدم المواد الدينية الإسلامية لطلابها الذين لم يحسنوا فهم اللغة العربية. (أبو بكر 1962: 2)

وقد رتّب هذا الكتاب على ما تعود عليه مجتمع هذه البلاد في تعليم الناشئين قراءة القرآن وتحفيظه وهو أنهم يبدأون بأم الكتاب الفاتحة ثم بجزء عم من آخره إلى أوله أي من سورة الناس إلى سورة النبأ بعكس ترتيب المصحف. ولما انتهوا من هذا الجزء ينتقلون إلى أول سورة البقرة وهو بداية الجزء الأول من القرآن الكريم ثم يستمرون إلى الجزء الثاني والثالث إلى أن ينتهوا بآخر الجزء التاسع والعشرين ويكملون بإعادة قراءة الجزء الثلاثين الذي به يختمون تعليمهم للقرآن الكريم ويقيمون بعده حفلة هنيئة يكرمون فيها الناجحين بختم القرآن ويقدرون فيها الأساتذة على جهودهم وصبرهم في التعليم ويشكرون الله فيها على ما منّ عليهم بهذا الكتاب من فضل وكرامة. ولعلّ السرّ في هذا الترتيب أن الطالب يتدرّج في تعلمه من اليسر إلى العسر بتعلم قصار السوَر أولاً حتى إذا أصبحت عنده القدرة إلى حدٍّ ما على القراءة انتقل إلى السور الطويلة. وبهذه القاعدة استطاعوا أن يزيلوا الوحشة بين أولادهم وبين القرآن الكريم فلا يفاجئوهم بما هو أصعب مما لم يتعودوا عليه كما استطاعوا أن يجنبوهم من اليأس في تعلمه إذا أحسّوا بالمشقة من أول وهلة. وقد راعى الشيخ هذه الأمور حين وضع هذا الكتاب.

وقسّم الكتاب إلى قسمين رئيسين: قسم في ترجمة معاني الآيات مجملة. وقد وضع هذا القسم بجانب كل مجموعة من الآيات القرآنية المدروسة. وأما القسم الثاني فهو شرح وتفصيل لمعاني الآيات بما فتح الله عليه، ويأتي هذا القسم بعنوان مستقل سماه ''شرح الآيات''. وإذا كان للسورة سبب خاص لنزولها أو فائدة علمية معينة وراء نزولها أوتسميتها فإنه يذكر ذلك في تمهيد خاص قبل أن يبدأ بشرح المجموعة الأولى من الآيات في السورة (أبو بكر 1962: 59) وقد يعقبه بذكر الأهداف الرئيسية للسورة. (أبو بكر 1962: 49؛ 54-53؛ 63) ويجد القارئ أن المؤلّف يبتدئ تفسيره لكل سورة بذكر اسم السورة ويترجم هذا الاسم إلى الملايويّة كما لم يفته أن يذكر مكان نزولها.

ويقع هذا الكتاب في الأصل في مجلدين حيث يشتمل المجلد الأول على تفسير سورة الفاتحة إلى سورة الشمس ويشمل المجلد الثاني على تفسير سورة البلد وينتهي بسورة النبأ. وقد جمع أخيراً في مجلد واحد تيسيراً على القارئ كما أصدره مطبعة فرسام فريس في فينغ سنة 1382هـ/1962م وهي النسخة التي اعتمد عليها الباحث في هذا البحث. وتعود حقوق طباعة الكتاب إلى هذه المطبعة كما هو مسجل قانوناً في ماليزيا وسنغافورة.

منهج الشيخ أبو بكر الأشعري في ''إينتيساري تفسير جزء عم''

لقد تطرّق الشيخ أبو بكر الأشعري لبيان شيء من منهجه في مقدمة هذا الكتاب حين يبيّن ما سيقدّمه الكتاب للقاريء فيقول: إنه ''يفسّر ويبحث عما جاء في الآيات مطابقا لظروف عصره واحتياجات زمنه، منه ما يتعلق بعلم الكلام وعلم التصوف أو الأخلاق وعلم الجغرافيا، ومنه ما يركّز على تحليل مسائل العبادات ثم مسائل اجتماعية وهلمّ جرّا مما يدلنا على سعة منبع أهل القرآن وعمقه والذي لا يتعرض للنفاد بل يستمرّ في جريانه ويزداد تياره ويؤتي للعالم جميعا ماءه النقي من قرن إلى قرن. (أبو بكر 1962: 3) فمن خلال هذه العبارات ودراستنا لهذا الكتاب نستطيع أن نجمل منهج صاحبه بما يلي:

التركيز على مقاصد الآيات

إن المطّلع على هذا الكتاب يجد أن صاحبه لم يخض في المباحث التقليدية التي تعوّد على ذكرها المفسرون القدامى في كتبهم أثناء تفسيرهم للآيات مما يتعلق بقضايا لغوية أو أحكام فقهية أو مسائل كلامية أكثرها خلافية وجدلية يصعب على المتعلمين فهمها فضلاً عن العوام وإنما يركّز كلامه على مقاصد الآيات ويلفت أنظار القارئ إلى ما ينبغي أن يقوم به تجاه تلك الآيات في حياتهم اليومية من تصحيح لأفهام والقيام بالواجبات الدينية والاجتماعية والوطنية ويحاول أن يستخلص منها دروساً وعبراً تحفزهم على العمل والتمسّك بالقيم الدينية النبيلة.

والذي يطّلع على هذا الكتاب يستطيع أن يلمس هذه الحقيقة من أوّل سورة بدأ بها المؤلف تفسيره وهي سورة الفاتحة. فعند كلامه عن البسملة لم يتطرق إلى المسائل الخلافية في كونها آية من السورة وما إلى آخره، وإنما جمع للقارئ الأقوال المذكورة في معناها وهي: **أولاً:** إنني أقرأ هذه السورة بأمر من الله، **ثانياً:** إنني أقرأ هذه السورة بعون من الله، **ثالثاً:** أنزلت هذه السورة بأمر من الله، **رابعاً:** أنزلت هذه السورة برحمة الله، **خامساً:** عليك أن تبدأ قراءة هذه السورة بذكر اسم الله. ثم حاول أن يجمع بين هذه المعاني في شرحه فيقول: ''فينبغي علينا أن نبدأ كل أعمالنا وأمورنا بسم الله خالصاً لوجهه، وعلينا أن نذكره سبحانه وتعالى في بداية كل أمورنا وأعمالنا كما ذكرنا باسمه كلما مررنا بقراءة مقطع من آيات كتابه حتى لا نزل في كل الأحوال.''

ثم حاول أن يستخلص درساً من هذه الآية فيقول: ''فعلينا أن نستظهر صفة الرحمة والرأفة في كل أمورنا وأحوالنا وتعاملنا كما حثّنا الله سبحانه وتعالى عليه في جميع أجزاء قرآنه الذي هو هدىً لنا جميعاً.'' وخرج في آخر تفسيره للآية بنتيجة قال فيها: ''فإذا تلفّظنا ببسم الله في عمل من أعمالنا كما في سيرنا وغيره فكأننا قلنا: إنني أعمل عملي هذا لأحقّق مرادي ولا أتوانى وأفيد به غيري مستلهماً معونة وقدرة من الله ، لا حول ولا قوّة إلا له، دبّر الأمر وملك العالم، لا مانع لإرادته ولا رادّ لقدرته عزّ وجلّ''.(أبو بكر 1962: 4)

الاعتماد على منهج السلف في توضيح أمور غيبيّة

إن الشيخ أبو بكر الأشعري كما هو معروف في تاريخ الفكر الإسلامي في هذه الأقطار الملايوية من أشدّ المنادين إلى العودة نحو منهج السلف في فهم الخطاب الديني خصوصاً فيما يتعلق بالأمور العقدية والأخبار الغيبية. وقد تعرّض من أجل مناصرة هذه الفكرة لانتقادات شديدة من قبل العلماء المحافظين المسيطرين على الدوائر الدينية الرسمية في زمانه.

وكما هو معهود في شأنه فإنه لن يترك الفرصة سانحة أمامه إلاّ ويستغلّها لبثّ أفكاره ونشر دعوته بين أفراد مجتمعه وأوساط جمهوره. وقد قام ببيان هذا المنهج عند تفسيره لقوله تعالى: (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ. ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ. مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ)[المطففين: 21-19] حيث شرح للقارئ خلاصة مسألة تأويل الآيات والأحاديث المتشابهات وبين منهج العلماء السلف والخلف في التعامل مع هذه النصوص بكل إنصاف. وفي نهاية شرحه رجح منهج السلف على منهج الخلف وبين حججه في هذا الترجيح وناقش وجهات نظر العلماء الخلف ورد عليها بكل أدب. ثم في نهاية هذا المبحث بين للقارئ ماذا ينبغي أن يعتقد به كل مسلم في حقّ الله سبحانه وتعالى كما كان عليه المسلمون في عهد السلف خالياً من تعقيدات المتكلمين وسالماً من كل شوائب المتفلسفين. (أبو بكر 1962: 241-237)

ويلاحظ القارئ أنه كلما يمر الشيخ بمثل هذه الآيات لا يتخلى عن هذا المنهج ويفوّض حقائق هذه الأمور الغيبية إلى صاحبها عز وجل. فأثناء تفسيره لسورة الكوثر تعرض لذكر الرواية الصحيحة التي تفيد بأن المراد بالكوثر في هذه السورة هو نهر في الجنة أعطاه الله سبحانه وتعالى لرسوله الكريم. وعن حقيقة هذا االنهر ووضح بأن شأنه شأن سائر أنهار الجنة وأمور الآخرة المذكورة في القرآن الكريم التي لا تصل إلى معرفة حقائقها عقول البشر ولا تشبهها الموجودات في هذه الدنيا. (أبو بكر الأشعري، 1962، ص20) ويمكننا أن ننظر إلى هذا المنهج نفسه إذا قرأنا تفسيره لقوله تعالى: (بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ. فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ) [البروج: 22-21] حيث نجد أنه فوّض حقائق اللّوح في الآيَة إلى الله سبحانه وتعالى. (أبو بكر 1962: 188)

محاربة البدع والخرافات المتأصلة في المجتمع الملايوي

يعيش الشيخ أبو بكر الأشعري في زمن وفي بلد ما زالت يرسخ تمسك المسلمين فيه بالأعمال والمعتقدات التي توارثوها من أجدادهم قبل أن يسطع نور الإسلام على هذه الديار التي طال إذلال أهلها تحت وطأة الوثنيين. فلقد أخذ أمر محاربة هذه البدع والخرافات على عاتقه لإيمانه بأن السبيل الوحيد للنهوض بالمسلمين نحو التقدم الحضاري والاستقلال الحقيقي من الاحتلال الأجنبي هو بالرجوع إلى العقيدة السليمة ونشر التعاليم الإسلامية الصحيحة في جميع أنحاء البلاد قرىً ومدناً. (أبو بكر 1962: 157)

ويلاحظ القارئ اهتمام المؤلف بهذا الأمر من أول قراءته لهذا الكتاب القيم. وذلك عند تفسيره للآية الكريمة: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) [الفاتحة: 5] حيث فصل فيه ما لا يجوز الاستعانة فيه إلا بالله وما يجوز الاستعانة فيه بالمخلوقات ونبه القارئ في هذه المناسبة على خطورة ما ساد بين فئات من المسلمين من القيام بأعمال ومراسم خاصة عند الصخور أو الأشجار الكبيرة أو مقابر أو أي مكان يعتقدون أن لها قدرة خاصة في جلب المنفعة أوالمضرّة على حياة الناس. هذه الأعمال ورثوها من أجدادهم الوثنيين وتمسّكوا بها ويؤدونها في أوقات معينة وبكيفيات مخصوصة لقضاء الحوائج وتجنيب الجوائح ويلقون عليها للأسف بعض طباعة الإسلام من قراءة بعض الأوراد أو الأدعية وغيرها. هذه العادة لم تزل منتشرة في حياة المؤلف وبشكل أخص في المناطق البعيدة عن مراكز الدعوة والتعليم والتمدّن. ويؤكد الشيخ في آخر شرحه لهذه الآية على أن هذه الأعمال تؤدي إلى الشرك بالله وينافي قولنا : إيّاك نستعين. (أبو بكر 1962: 6)

وقد أسهب الشيخ في الكلام على هذه القضية عند تفسيره لقوله تعالى: (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى. وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى) [الأعلى: 14-15] وبيّن أن من متطلّبات التزكية كما ترمي إليها الآية أن يسعى كل فرد إلى أن يكون عضوا فعالا في مجتمعه له إسهاماته ومشاركته في بنائه وتحقيق التقدّم الحضاري له. ومن الأمور التي تعيق المسلمين من الوصول إلى هذه الغاية تقيدهم بالعوائد ورثوها من أجدادهم وتعلّقهم بمخلفات المراسيم الدينية الهندوسية أبقوها على أنفسهم وحكموها في شؤون حياتهم في حين تخلى أكثر الهنود المتمدنين أنفسهم عن هذه الأمور التي وجدوها تعيق حياتهم من الهناء والرفاهية. ومن هذه العوائد المتأصلة في نفوس المجتمع المسلم عادات في الزواج والحمل والولادة والوفاة. لكل هذه المناسبة أعمال وواجبات يقومون بها بطرق خاصة وكيفيات معينة ويقيمون معها ولائم مكلفة ويصرفون فيها أموالا ويسرفون ويبذرون. ولو اضطروا إلى بيع القلة مما بقي من أموال الميت التي ينبغي أن تصرف للمستحقين لا يستأثمون بذلك بل ويستدينون ويرهنون الأموال من أجل الحفاظ على هذه المعتقدات الباطلة. ولا بأس أن يصابوا بالفقر من أجله ولا مانع أن يتقدم عليهم الشعوب غير المسلمين لأن الدنيا جيفة وهي للكافرين والذين يسعى وراءها كلاب ومقام المسلمين في الآخرة وعليهم أن لا يغتروا بالدنيا وليس عليهم إذا أصيبوا بمصيبة إلا أن يدعوا الله عز وجل ويصلوا صلاة الحاجة ويكثروا من الدعاء عسى أن يستجيب الله لهم. (أبو بكر 1962: 153)

والذي يتابع كلام الشيخ في هذا التفسير يجد أنه ينبه قراءه بشكل مستمرّ على خطورة الأمور البدعية والخرافية كلما يستدعوه الموقف إلى ذلك. وهناك أمثلة أخرى كثيرة غير التي ذكرناها سابقاً تؤيّد ما ذكرنا. (أبو بكر 1962: 72؛ 76؛ 86)

الاستفادة من التقدّم العلمي الحديث

إن المطلع على هذا الكتاب يجد أن المؤلف لا يحصر فكره في نطاق العلوم الدينية فقط بل ويبسط الكلام في شتى المجالات مما يثبت أن له اطلاعاً واسعاً على العلوم الحديثة والفنون العصرية. لذلك نجد أن شرحه للآيات مدعوم بالحقائق العلمية والمعلومات الحديثة تحفز القارئ على الاستمرار معه في دراسة الآيات ومحاولة فهمها بشوق وبدون ملل.

فعند تفسيره للآيات: (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ. ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ. مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ)[المطففين: 19-21] تعرض لإثبات وجود القيامة وحتمية حدوثها مستدلا بحقائق علمية من علم الفضاء كما ترشد إليها السورة. وأن هذه الواقعة الكبرى الثابتة ليست من تخيلات محمد صلى الله عليه وسلم بل هي إنذار من الله سبحانه وتعالى على ضرورة الإيمان بوجوده وقدرته وإرادته. وذكر الشيخ أن علماء هذا العلم قد أثبتوا أن لهذا العالم نقطة الابتداء قد يعود إلى أربعة آلاف مليون

سنة مضت. ولهم في تفسير حدوث هذا العالم توجهان: الأول: أن هذا العالم حدث بنفسه، والثاني: أن لهذا العالم خالقاً عظيماً. والرأي الأول مردود لا يقبله العقل ولا المنطق. فثبت أن الرأي الثاني هو الصحيح، إلا أننا إذا قلنا إن هذا الخالق من جنس العالم فإن العقل يستبعده لأنه يؤدي إلى السؤال عن خالقه إلى ما لا نهاية. والعقل لا يقبل إلا أن يكون الخالق مخالفاً للمخلوق، فإذا كان المخلوق حادثاً يجب أن يكون الخالق قديماً، وإذا كان المخلوق له نقطة البداية والنهاية يجب أن لا تكون للخالق هذه النقطة وهكذا، وإذا تبيّن أن هذه الصفة لا تكون إلا لله كما في قوله تعالى: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) [الأنعام: 11] ثبت أن الخالق هو الله جلّ جلاله. وقد قامت الأدلّة والبراهين على وجوده سبحانه وتعالى واضحة جليّة بعد بحوث ودراسات موسّعة أجراها العلماء والباحثون المسلمون وغير المسلمين باتت لا ينكرها إلاّ معاند. (أبو بكر 1962: 241-242)

وعند تفسيره للآيات: (أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ. وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ. وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ. وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ) [الغاشية: 17-20] تحدّث بالتفصيل عن عجائب خلق السماء وعالم الفضاء التي دعت الآية الكريمة إلى تأملها والاستفادة منها. فذكر أن على المسلمين أن يعرفوا من النجوم ما يدرك بالبصر وما لا يدرك إلا بالأجهزة المتطورة، وما يثبت في مكانه وما يدور في فلكه حول مكان نفسه وحول الشمس، وأن الشمس تدور في مكانها. وهذا العلم ضروري لتطوير وتحسين حركة الملاحة في بلاد المسمين وضمان سلامة بواخرهم في المحيطات كما سبقهم إلى ذلك القوى الغربية مثل إنجلترا، والولايات المتحدة، وفرنسا، وألمانيا وغيرها. وقد امتلكت هذه الدول أجهزة متطورة سميت بديوان الكواكب السيارة (observatorium) لرصد هذه النجوم ودراسة أحوالها وأسرارها لتثبيت تفوقهم في الملاحة ودقتها في أداء واجبها لدولتها وشعبها. وقد شرح الشيخ في هذه المناسبة كل واحدة من هذه النجوم كما توصل إليها علماء هذا الشأن وطبيعتها وما قيل عنها. ومن روائع ما كتب في هذا الشرح أن للمريخ قمرين يدوران حوله وأن فيه هواء يتنفس به كائن حيّ ومن أجل ذلك تيقن علماء الفلك بأن النباتات والكائنات الحيّة تعيش فيه بل وقد يعيش فيه حيوان عاقل. وذكر أن الشيخ محمد رشيد رضا بين في تفسيره المنار بأن هناك حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم يؤكد على وجود مخلوق عاقل في بعض هذه الكواكب مثل البشر في هذه الدنيا ولهم شريعة أنزلها الله إليهم عن طريق رسل بعثهم إليهم. وقد ختم الشيخ حديثه بحثّ المسلمين على تعلم هذه العلوم لمصلحتهم الدنيوية والأخروية مستدلاً بقوله تعالى: (فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) [الأنعام: 96] ودعا الله عز وجل أن يهدي عباده المسلمين ويوقظهم من نومهم العميق ليقوموا بواجب استعادة عزتهم ومجدهم (أبو بكر 1962: 137-141).

وقد بسط الشيخ الكلام عن الكواكب وعالم الفضاء مرة أخرى عند تفسيره لقوله تعالى: (وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا) [النبأ: 12] وذكر أن للعلماء في بيان المراد من قوله (سَبْعًا شِدَادًا) رأيان؛ **الأول:** أنها تعني سبع سموات كبرى والثاني: أنها تعني سبعة أفلاك عظام. وطفق يشرح للقارئ حقائق علمية ودينية في خلق السموات والكواكب السيارة التي قال عنها الله سبحانه وتعالى: (وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ. وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ. لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) [يس: 38-40] ثم أضاف أن هذه الأفلاك التي تحدث عنها في حقيقة الأمر إنما هي مجموعة واحدة من زينة السماء الدنيا كما في قوله تعالى: (وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ) [الملك: 5] وفي قوله: (إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ) [الصافات: 6] وكما أنه رب هذه المجموعة من الكواكب فقد نبّه الله سبحانه وتعالى في آية أخرى بأنه ربّ لكوكب آخر أكبر وأبعد من هذه الدنيا سماه شعرى في قوله تعالى: (وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى) [النجم: 49] وقد أثبت علماء الفلك والعلم الحديث أن خارج هذه الأفلاك القريبة كواكب أخرى منها هذا الذي سمّاه القرآن بالشعرى. ويقول أحدهم وهو الجنرال الغاري مختار باشا الفلكي إن حجم الشعرى أكبر من الشمس بمائة مرة ومسافته من الدنيا 000 300 سنة بسرعة الضوء في حين يصل الضوء من الشمس إلى الدنيا خلال 8/1 ثانية فقط. (أبو بكر 1962: 328-331)

وفي تفسيره لسورة الفيل بيّن أن المقصود بالطير إنما هي من المكروبات لأن الطير في اللغة كل ما يطير صغيرا كان أو كبيراً يدرك بعين البصر أو لا يدرك، وأن المراد بالحجارة التي رماها الطير إلى هؤلاء الجيش الذين أتوا لهدم الكعبة هي ذلك الداء الذي كانت تحمل معها تلك المكروبات. وقد انتشر الوباء من هذا الداء لأول مرة في الجزيرة العربية في تلك السنة وقد أدى إلى تساقط جلود المصابين به من أفراد ذلك الجيش ومن ضمنهم زعيمهم الأول أبرهة الذي لقي حتفه بعد هروبه بصنعاء بسببه. (أبو بكر 1962: 28-29) ويلاحظ هنا أن الشيخ قد وظّف ما توصّل إليه علم الطب الحديث في تقريب فهم هذه الآية للقارئ وقد اقتبس هذا الرأي من تفسير الشيخ محمد عبده في كتابه الشهير بتفسير جزء عم. (عبده 2006: 5/532-533)

وهكذا نجد أن الشيخ لم يتردد في الاستفادة من تقدّم العلوم العصرية في سبيل توضيح معاني الآيات القرآنية وتشويقها إلى النفوس مما يجعل القارئ يستشعر عظمة هذا الكتاب فيندفع للاستمرار في متابعة دراسته والعمل به. والذي يقرأ الكتاب يجد هذا العنصر مبثوث في أكثر صفحاته. ومما يمكن التنبيه عليه هو أن الشيخ لم يكن يطوع الآيات للنظريات العلمية وإنما كان يستفيد من حقائق العلم لدعم شرحه للآيات وتسهيل فهمه على الناس. (انظر على سبيل المثال: أبو بكر 1962: 145-146؛ 236-237؛ 281-282؛ 320-321؛ 338)

الاهتمام بقضايا المجتمع الراهنة

تقدّم أن الشيخ أبا بكر الأشعري كان عالماً داعياً يعايش قضايا مجتمعه ويشغله البحث عن حلول لمشاكل أمته الإسلامية الذين باتوا متخلّفين عن التيّار التقدم الحضاري بعد أن كانوا سادة يحدّدون مصائر الشعوب والعالم. ومن القضايا التي نالت اهتمام الشيخ في هذا التفسير والتي يرى أنه من أهم الأسباب التي تؤدي إلى تخلف المسلمين في هذا العصر: سوء فهمهم للعبادة، وقضية فصل الدين عن الدولة التي انتشرت بين المثقفين المسلمين وأدعياء العلم، ومعاني الاستقلال من الاحتلال الأجنبي، وتخلّف المسلمين في مجال التعليم.

ففي تفسيره لسورة الماعون تحدّث عن نظرة كثير من المسمين الذين يرون أن الواجب عليهم إقامة الشعائر الدينية من صلاة وصيام وحج ولا ينفقون من أموالهم إلا ما فرض عليهم من الزكاة وقد ينقصون في دفعه، وأن ما زاد على ذلك ليس من شأن الدين في شيء. وهذه السورة تعالج حسب قوله هذه القضية بشكل مباشر واعتبرت كل من يرى هذه النظرة من المكذبين بالدين. وليس من الصادقين في عبادتهم الذين يعاملون اليتامى معاملة سيئة ولا يهتمون بشؤونهم ولا يستعدون ببذل أدنى جهد ولا معونة في سبيل رعاية وإصلاح أحوال اليتامى وفقراء المسلمين ورفع مستوى معيشتهم حتى اضطروا إلى مواجهة كل المصائب بأنفسهم ولا يبالي بهم أحد. وقد أدى ذلك إلى مشاكل اجتماعية كبيرة بين المسلمين اليوم وأدى إلى توتر العلاقات بين طبقات المجتمع، الأمر الذي نهت عنه هذه الشريعة السامية. ونعى الشيخ بالذين يجتهدون في إقامة الصلوات المفروضة ويحرصون على صيام شهر رمضان المبارك وهم مع ذلك لا يهتمون بيتامى المسلمين وفقراءهم ويدخلون بذلك في ضمن المكذبين بالدين كما بينته السورة. فأعمال هذه الفئة من المسلمين تكذب ما قاموا به من أنواع العبادات لأن هذه العبادات تحتوي

على الإقرار بألوهيته سبحانه وتعالى والإذعان لكل أوامره ونواهيه والاتصاف بكل الصفات الحميدة. فإساءة اليتامى وإهمال مصالح الفقراء والتقاعس عن الأعمال الخيرية والبخل عن الإنفاق في سبيل دعم المشاريع الاجتماعية كلها لا تتأتى مع العبادات الخاشعة الصادقة الخالصة لوجه الله. وحذر الشيخ من الغرور في العبادات التي لا تؤثر في تهذيب السلوك وأن ذلك من أمارات الهلاك وأن ليس لصاحبه إلا التعب والشقاء ودعا المسلمين إلى محاسبة أعمالهم وفهم حقائق دينهم وأن يعرضوا أنفسهم على هذه السورة هل من المصدقين بالدين هم فعلا أم من الكذبين به؟ (أبو بكر 1962: 21-23) وقد أكّد الشيخ على هذه المعاني كلما سنحت له الفرصة للتعرض إلى هذه القضية كما رأيناه في تفسيره لسورة الضحى، (أبو بكر 1962: 92-94) عند قوله تعالى: (فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ. وَأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ) [الضحى: 9-10] وفي نهاية تفسيره لسورة الفجر. (أبو بكر 1962: 129-130)

وتأتي قريباً من هذه، قضية فصل الدين عن الدولة التي لم تفلت من اهتمام الشيخ في هذا الكتاب. وهي قضية ابتليت بها أمة الإسلام في معظم الدول الإسلامية في العصر الحديث كما ذكره الشيخ أبو الحسن الندوي في كتابه الشهير ماذا خسر العالم من انحطاط المسلمين. (الندوي د.ت: 237) ففي تفسيره للمجموعة الأخيرة من آيات سورة الأعلى وهي قوله سبحانه وتعالى: (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى. وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى. بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا. وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى. إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى. صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى) [الأعلى: 14-19] بين واقع المجتمع المسلم في هذا البلد فقال لو أن مجتمعنا يصيبون في فهم الإسلام والعمل به لما رأينا ما نحن عليه الآن من التخلف. نعم، إن حبّ مجتمعنا للإسلام بشكل عام أقوى وأعمق مما مضى ولكن هذا الحب لا يتجاوز الفهم الضيق للأمور التعبدية في نطاقها المحدود بين العابد ومعبوده. ونتيجة للعمل الاستعماري الفكري والذي يسانده بعض العلماء السوء طمعاً لمصالحهم الدنيوية طول تلك الفترة من الزمن بقيت أمتنا يبعدون دينهم عن أمورهم الدنيوية ويرون أن الدين لا صلة له أصلاً بسياسة الدولة ولا بأوضاعها الاقتصادية والاجتماعية ولا يتعبّدنا الله بالسعي وراء الدنيا ومتاعها، كلما علينا أن نترك هذه الأمور لأصحابها وعلينا أن نموت قبل الموت الحقيقي وقبل أن تحمل أجسادنا إلى المقابر. علينا أن نترك أزواجنا وأولادنا، ونترك قرانا وديارنا بما فيها من زينة ومتاع ونترك كل ملذّات الحياة ولا داعي لامتلاك الأموال والعقارات ولا حتى السيارات لأن كل ذلك من الدنيا لا ينبغي أن يتنافس عليها كما اشتهر في السجع الملايوي '' إن الدنيا متاع وإن الآخرة لهي المنتهى''. وقد أكد الشيخ على أن هذه الأمور هي التي تجعل كل المساعي لإصلاح أوضاع المسلمين المتخلفة في بلدنا هذه وتطوير إمكانياتهم أمراً شاقاً للغاية (أبو بكر 1962: 153-154).

وبعد أن شرح عن سوء فهم المسلمين لحقائق دينهم الذي أدّى إلى هذا التصور الخاطئ عند المجتمع، عاد الشيخ ليؤكد على خطورة هذه القضية وبين أن هناك فئة من طبقة المتعلمين في المجتمع قاموا بترويج هذه الفكرة ونادوا بتنحية الدين عن الشؤون الدنيوية إدارياً واجتماعياً واقتصادياً وسياسياً. وخوفاً من اندفاعهم لنشر الثقافة الغربية التي تأثروا بها في أوساط المجتمع بشكل مكثّف حتى قد يؤدّي إلى اعتقاد الناس بعدم صلاحية هذا الدين لهذا الزمن، أو استهزائهم به أو دعوة علنية حافزة على حملة التنصير بين المسلمين، يجب على الجهات المعنية أن تقوم بتفعيل الصلاحية القانونية المتوفرة في قانون الدولة وتطبيقها للحفاظ على قدسية هذا الدين وعلوه كما ينبغي أن تضاعف الجهود في إقامة الدورات التثقيفية ونشر الدعوة وإرسال المبلغين إلى أنحاء البلاد لتوعية المسلمين وتعليم أمور دينهم، وأن تراقب كل المشاريع الدينية في الدولة لضمان سيادة هذا الدين حتى تحقق كل واحدة منها الأهداف المرسومة لها. وهذه كلها تتوافق مع مكانة هذا الدين الذي هو الدين الرسمي للدولة. (أبو بكر 1962: 157) وعن واجب إقامة الشريعة الإسلامية في جميع شؤون الحياة فقد تحدّث الشيخ عنه بالتفصيل عند تفسيره لقوله تعالى: (وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ. وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ. وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ. وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ. فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ. إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ. لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ. وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) [التكوير: 22-29] فقد نادى المسلمين من خلال تفسيره لهذه المجموعة من الآيات إلى الأخذ بشريعة القرآن كلياً ولا يحصرونها في نطاق العبادات المخصوصة والمناكحات وأحكام الأسرة فقط وإنما يجب عليهم أن يطبقوا جميع أحكام القرآن في جميع شؤون الحياة. ثم تعرّض لتوضيح حكم من لم يأخذ بشريعة القرآن في حكمهم وبيان ما وعده الله سبحانه وتعالى لِمن أخذ بهذه الشريعة وما سيصيبهم إذا تهاونوا في الأخذ به. (أبو بكر 1962: 249-255) وتكميلاً للبحث فقد أعطى للقارئ صورة عامة عن الإسلام، (أبو بكر 1962: 256-261) ومن جملة ما ذكره في هذا الصدد أن الإسلام نظام شامل لجميع نواحي الحياة فهو دولة ووطن أو دولة ورعية، وهو أخلاق وقوة أو رأفة وعدالة، وهو ثقافة وقانون أو علم وقضاء، وهو مادة ومال أو ثروة وغناء، وهو جهاد ودعوة أو دفاع ورؤية، بل الإسلام عقيدة حقة وعبادة جادة، كلها سواء في حقيقته، وأن القرآن دستور أبدي سرمدي لايتبدل لأنه هداية الله لأكمل مشروع الحياة تتوقف عليه السعادة البشرية في الدنيا ولآخرة. (أبو بكر 1962: 257)

ومن قضايا الساعة التي تعرض لها الشيخ في تفسيره تصحيح مفهوم الاستقلال وترسيخه في نفوس المجتمع. فقد كانوا يكتفون في فهم الاستقلال بخروج المحتلّين من البلاد ويحتفلون به من غير أن يفكروا بواجبهم ومسؤوليتهم كمواطنين وشعب لبلد مستقلّ. فالشعب المستقلّ الحرّ هم الذين تحرّروا من كلّ ما تدعوهم إليه أهواءهم وشهواتهم لأن الغرق في الخمر وأنواع المخدرات والميسر والزنا وأكل الربا والطمع في الأموال يقلل من شرف أصحابها ويضعف ثقتهم بالعقيدة والمبادئ. ومن كان هذا شأنه لا يقوى على الدفاع عن استقلال بلده وحرية شعبه لأن نفوسهم لم تتحرر من هذه العادات السيئة. إن الإنسان الحر لن يتخلف عن أداء كل واجباته لأنه قد اختار لنفسه مبدأ يوازنه بعقله ودينه وعلمه وعنده استعداد كامل للدفاع عنه والصمود أمامه في أي مكان كان. وبهذا يتبين أن المعاني الحقيقية للاستقلال الوطني وحرية النفس وحرية الرأي لا تتأتى إلا باستقلال الروح والأخلاق. فمن هنا يجب على كل فرد من أفراد المجتمع المسلم أن يرسخ هذه المعاني في نفسه وأن يهذب روحه ويربي أخلاقه حسب ما يدعوه إليه إسلامه ليصبح عضوا فعالا في مجتمعه. وعليه أن يطور عقله بتعويده على ممارسة العلم، وتبادل الخبرات، وعملية النقد والانفتاح على انتقادات الآخرين، كما يجب الابتعاد عن التعصب لرأي من الآراء والتقليد الأعمى للأشخاص لأن هذا يؤدي إلى الجمود والتخلف والخمول، وهذه العقلية لا تتناسب مع شعب نال استقلاله وتحرر من ربقة الاحتلال. (أبو بكر 1962: 151-152)

ويسوء الشيخ تخلف المسلمين في مجال العلم، وهذا الأمر يدعوه إلى أن يحرضهم على تعلم العلوم الحديثة والاهتمام بها. فعند تفسيره لقوله تعالى: (أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ) [الغاشية: 17] بعد أن شرح الآية ومنافع الإبل لسكان الصحارى، قال إن هذه الآية تحث المسلمين على تعلم علم الحيوانات لفوائد جمة ينتفعون بها لإصلاح حياتهم الاقتصادية والعلمية. وكذلك بعد شرحه للآية التي بعدها، وهي قوله تعالى: (وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ) [الغاشية: 18] قال الشيخ إن هذه الآية تأمر المسلمين بتعلم علم الفلك وعالم الفضاء. (أبو بكر 1962: 138) وبعد الحديث الطويل عن الفضاء والنجوم تأسف من واقع المسلمين في عصره الذين لا صلة لهم بهذا العلم ويفضلون أن يكونوا مشاهدين بجانب الساحة لايعملون شيئا ودينهم قائم يحثهم على التبحر في هذه العلوم لأغراضهم الدنيوية والدينية. (أبو بكر 1962: 140) وتحسّر الشيخ من واقع أمته الذين لا يبالون بتوجيهات كتابهم

الذي يقرأونه يومياً ويعتزون به على قوم آخرين وكل ما يدعوهم إليه كتابهم يجدونه عند الآخرين وما لهم به من علم ولا همّ. (أبو بكر 1962: 231)

تحريض المجتمع على النهوض ببناء الأمّة ورفع الدين

ومما يمتاز به هذا الكتاب أنه حافل بدعوة القراء إلى العمل الإسلامي والنهوض ببناء المجتمع المسلم وتجسيد حضارة الدولة الإسلامية المتقدمة كما كانت عليه أيام مجد أجدادهم. ففي تفسيره للآية 19-13 من سورة الفجر بعد أن بين أن التأمل فيما سيناله الأبرار من نعيم وما سيناله الفجار من عذاب جحيم يوم القيامة سيغرس في نفوس المؤمن الشعور بالخوف والرجاء. وإذا تمكّنت هاتان الصفتان في نفوس المسلمين والمسلمات فإن المجتمع الإسلامي سيعيش حياة رخية وسليمة ابتداء من أصغر وحداته وهي الأسرة وانتهاء إلى أكبر وحداته وهي الدولة. فالفوز بالجنة والنجاة من النار يتطلبان العمل الصالح من مختلف أنواع العبادات الواجبة والنافلة كما يتطلبان الكدح والكفاح في خدمة مجتمعنا أمَّة وشعباً، حكومةً ورعيَّة، وهو من أسمى مقاصد عباداتنا وحكمها...فإذا منحَنا الغنيُّ غنى فعلينا أن نوظفه لنيل السعادة الأخروية ومساعدة الفقراء المحرومين ونصرة الدين القويم والذب عن حوزة الأمة ... وإذا منحَنا القويُّ درجة وسلطة فعلينا أن ننفذها في سبيل الحفاظ على صغار الناس وإقامة العدل والدين. وإذا كنا عالمين فإلى العدل ندعو ولا نتبدل الحق بالباطل لأغراض شخصية. وهكذا إذا استغل كل واحد منا ما أنعم الله عليه من فضل فيما أمره فإن الجنة ونعيمها له لا محالة وأنه في منجاة من النار وعذابها. و هذا كله لا يتأتى إلا بالخوف والرجاء. وهو ما ينقصه المسلمون اليوم حتى لا يستحيون في الإتيان بالمعاصي والمنكرات سرا وعلانية ولا يستأثمون تركهم للواجبات نحو الله والمجتمع والبلاد. (أبو بكر 1962: 228-227)

وعند تفسيره للآية 24-32 من سورة عبس تحدّث عن أهمية قطاع الزراعة في تنمية البلاد وجاء بآيات كثيرة وأحاديث متنوعة تحثّ المسلمين الاشتغال بالزراعة كما جاء بأمثلة من واقع حياة الصحابة تبين حرصهم على الامتثال بهذا الهدي وخلص بنتيجة يقول فيها: ''هذه الأحاديث تعني أن الذي يغرس أي غرس واجتهد في الاعتناء به والحفاظ عليه وصبر حتى أثمر مأجور ولو أكله إنسان أو حيوان أو سرقه سارق أو أفسده حيوان، لا ينتفع بأجره في حياته فحسب وإنما يلحق به إلى يوم القيامة. ففي حديث ذكر أن ستا من الأعمال يستمر أجرها ولا ينقطع: صدقة جارية أو وقف، وعلم ينتفع به، وولد صالح يدعو لوالديه، وزروع ونبات، وبنايات أقيمت في البلاد من مساجد أو مدارس أو مآوي المسافرين أو مكتبات أو غيرها، وبناء رباطات على الثغور تحمي البلاد من الأعداء. ويفهم من هذا أنه إلى جانب الزراعة يحتاج البلد إلى تفعيل قطاعات أخرى من الأعمال وتطويرها حتى تكتمل أركان الحياة من أجل إرساء أركان القوة للمجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية المستقلة إلى أن تقوم بلدة غنية هنية.''

''الإسلام يحث ويحفز على تقدم الرعايا، وهذا يتطلب توفير التنمية والصناعات الكبيرة والصغيرة، فإن الشريعة الإسلامية كلها سواء فيما يتعلق بالأوامر أو النواهي إذا تأملنا بدقة نجد أنها تسن لضمان سلاسة التقدم لرخاء الأمة، فسنّت القوانين وأقيمت الدولة وشدت آليات الحكومة وعمم التعليم في سبيل تحقيق التقدم في جميع النواحي ويبعث على الرفاهية والسعادة. والإسلام يدعو إلى المثابرة والاجتهاد في العمل والإخلاص فيه فلا يمنع انتفاع المرء بما بناه من المصانع و العمارات والمدارس والمساكن والمصليات والمساجد من أجر وثواب إذا أخلص النية ولا مانع من توسيع الحقول والبساتين والمزارع إلى أوسع ما يكون إذا صاحبه إخلاص النية لله تعالى ولنفع الناس بل والحيوان فيثيبه الله ويبارك له ويرضى عنه. لهذا فعلى كل عامل وموظف في المجتمع أن يخلصوا نياتهم قبل التوجه إلى أماكن أعمالهم على أن تكون أعمالهم خالصا لوجه الله تعالى فينال بها خيري الدنيا والآخرة ويكونون بذلك من أنصار الله تبارك وتعالى.'' (أبو بكر 1962: 275-271)

ويتجلّى حماس الشيخ على الدعوة إلى نهضة الأمة وبناء الحضارة المنشودة في آخر تفسيره لسورة عبس حيث ختم كلامه بقوله: ''تعالوا نبذل الجهود ونقدّم الإسهامات في أحسن صورة وفي كل لحظة وساعة للناس وللمجتمع عسى أن تكفّر بها كل خطيئاتنا وننال بها حياة هنيئة ومطمئنة كما يدعو إليها الإسلام.'' (أبو بكر 1962: 279) كما يتجلى ذلك في ختام كتابه وهو في صدد تفسير آخر آية من سورة النبأ، وهي قوله تعالى: (إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَالَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا) [النبأ: 40] فيحثّ القراء على الاستعداد لملاقاة هذا الموقف العظيم من التزوّد بالطاعات والإكثار من الأعمال الصالحة التي لا تنحصر في شعائر العبادات كما يعتادها عوام الناس وإنما ركز بشكل خاص على الأعمال الاجتماعية الجهادية في شتى ميادين الحياة الدنيوية الواسعة من السعي إلى رفع الشؤون الدينية وشعائره في الدولة والإسهام في تطوير المجتمع وإقامة العدل فيه وتحقيق الحق وتعطيل الباطل واستيعاد كرامة الأمة ومجد أجدادها. (أبو بكر 1962: 358-360)

مراعاة الوحدة الموضوعيّة للسورة القرآنية

ونقصد بالوحدة الموضوعية للسورة القرآنية أن كل سورة من سور القرآن الكريم لها مقاصد وأهداف محددة، فهي قد تتطرق إلى عدة موضوعات وتتناول منها جوانب تحقّق تلك المقاصد والأهداف في موضوع عام موحد. (انظر: حجازي، 1970، 404؛ 40) نستطيع أن نلاحظ هذا الأمر عندما يتعامل الشيخ مع السور الطويلة في هذا الجزء ابتداء من سورة الزلزلة إلى سورة النبأ إلا سورة الانشراح فقد فسّرها جملة واحدة كسائر السور القصيرة الأخرى من غير تقسيم لعدم تفرع آياتها إلى موضوعات فرعية في معالجة الموضوع العام للسورة.

فعلى سبيل المثال عند تفسيره لسورة النبأ فقد قسّم آياتها إلى مجموعات: المجموعة الأولى تتكون من الآية الأولى إلى الآية الخامسة، وهي تتحدث عن اختلاف الناس في شأن يوم القيامة، والمجموعة الثانية من الآية السادسة إلى الآية السادسة عشرة وهي تقيم الحجة والأدلة على ثبوت يوم القيامة، والمجموعة الثالثة من الآية السابعة عشرة إلى الآية الثلاثين وهي تحدثنا عن الأحداث الحقيقية في يوم القيامة وماذا سيحلّ بالمكذبين به، والمجموعة الأخيرة من الآية الواحدة والثلاثين إلى الآية الأربعين وهي آخر آيات هذه السورة وهي تذكّر الناس بما سيناله المؤمنون المتّقون في ذلك اليوم من نعيم مقيم وعطاء هنيء. (أبو بكر 1962: 360-318) فإذا رأينا إلى موضوعات هذه المجموعات الأربع نجد أنها تنصبّ في موضوع عام واحد وهو إثبات يوم القيامة وما فيه من عقاب وإنعام. فقد قسم الشيخ آيات هذه السورة إلى مجموعات حسب موضوعاتها الفرعية ولاحظ وجه ارتباطها كلما ينتقل من مجموعة إلى مجموعة. فقبل أن ينتقل من المجموعة الأولى التي ركز فيها الشيخ على الحديث عن يوم القيامة وكونها من أصول دعوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وأهميتها لسلامة الإنسان وسعادتهم في حياتهم الدنيوية والأخروية، ذكر في آخر حديثه أن أهل الجاهلية قديما وحديثا ما زالوا يتشكّكون ويتسائلون بل ويتنازعون فيما بينهم في هذا المعتقد، وقد ذكّرهم القرآن وبيّن لهم أن قدرة الله الخلاّقة ليس لها حد، فكما تجلت قدرته في بدء الخلق، فقدرته على الإهلاك والإعادة لا محالة فيها... (أبو بكر 1962: 325) وهو ما ستتولّى تفصيله الآيات في المجموعة الثانية.

وهكذا كان صنيعه قبل أن ينتقل من آيات المجموعة الثانية إلى المجموعة الثالثة، بعد الفراغ من بيان عجائب قدرة الله عز وجل في خلق السموات والأرض والجبال والليل والنهار والإنسان أزواجا وما إلى ذلك من مظاهر قدرة الله تعالى في هذا الكون، وكونه دليلاً واضحاً وبرهاناً ساطعاً على وقوع يوم القيامة، قال: ''وبعد الفراغ من بيان قدرة الله عز وجل وتمثيلها جاءت الآيات لتتحدث عن أحداث يوم القيامة حيث تتساقط النجوم والكواكب، وتتفتّح السموات وتتشقّق...'' (أبو بكر 1962: 336-335) وكذلك عند الانتقال من المجموعة الثالثة إلى المجموعة الأخيرة حيث نجده يقول: ''في هذا القسم الأخير من سورة النبأ يبين الله تعالى حالة المتقين والذين عملوا الصالحات وخافوا ربهم بامتثال أوامره واجتناب نواهيه كما في قوله تعالى...'' (أبو بكر 1962: 349) وبهذا يكون الشيخ رحمه الله قد نبّه قرّاءه على تناسق موضوعات السورة وتوحّدها رغم تفرّعها وتشتّتها في أذهان بعضهم فتتجلّى أمامهم مقاصد السورة وأهدافها واضحة جليّة.

أثر الحركة التفسيرية الراهنة على تفسير الشيخ أبو بكر الأشعري

وإذا رأينا إلى حركة التفسير في هذا العصر نجد أن الحياة قد عادت إليها وأن الركود لم يعد سمة بارزة عليه حتى باتت تنتشر مظاهر نشاطها في شتى الصور تختلف في روحها عما عليه لفترة من الزمن. فالدروس التي أُلقيت في التفسير لم تعد تنحصر في صورته التقليدية من ترديد لأقوال العلماء السابقين وتعديد مسائل لفروع العلم ولكن اجتاز هذه المرحلة إلى مرحلة جديدة تتوافق مع الظروف الراهنة فرضت نفسها على المسلمين أجمع. فقد تحوّل هذا العلم إلى مرحلته الجديدة بظهورالإمام محمد عبده على ساحته في نهاية القرن الثالث عشر الهجري الموافق نهاية القرن التاسع عشر المسيحي. (انظر: عدنان 2005: 80-77) وقد كان رحمه الله تعالى يتخذ من منبر القرآن طريقاً لبيان البدع والأوهام، وما فرق أمر المسلمين بعد الإجماع، ويوضح الفرقة الفكرية والسبيل إلى تلافيها بالاجتماع على مائدة القرآن الكريم من ورده الصفي وعلمه النقي. (شحاتة 2001: 38) واتفق الباحثون على أن هذه المرحلة بدأت من ظهور الإمام محمد عبده واستمرت إلى يومنا هذا. (انظر على سبيل المثال: شحاتة 2001: 27؛ عباس 1997: 2؛ 290-219؛ الخالدي 1997: 26-19؛ عبد الغفار د.ت: 127-126)

ومن أهم مواصفات هذه المدرسة في منهجية التعامل مع االقرآن الكريم: العودة إلى منهج السلف في تعليم وتعلم القرآن وفهمه، ومن أهم مظاهره التركيز على الجانب العملي المطلوب من كل آية ولا يقتصر على تجويد التلاوة وتكثير الختمات مِن غير تأمل ولا تدبر، وعدم الخوض في مبهمات القرآن والتعمق في البحث عن الآيات المتشابهات؛ وتفسير الآيات بناء على وحدة موضوعية للقرآن الكريم؛ وتوضيح ما علق بالتفسير من إسرائيليات وموضوعات وسوء فهم لبعض الآيات؛ والاستفادة من مكتشفات علمية حديثة؛ ومحاولة جدية لمعالجة قضايا الأمة الاجتماعية والسياسية والاقتصدية من منظور قرآني؛ والاهتمام بعملية التربية لبناء أخلاق الأمة وشخصيتها بما يتفق مع روح القرآن؛ واعتماد الأسلوب الميسر في تفهيم المسلمين بكتابهم. (انظر: عدنان وآخرون 2005: 19-20)

وإذا رأينا إلى ما درسنا في منهج الشيخ في هذا الكتاب نجد أن ما يسير عليه ينسجم تماما لما اعتاد عليه أصحاب مدرسة الإمام محمد عبده. وهو وإن لم يصرح بمصادره في هذا التفسير، إلا أننا وجدنا من خلال قراءتنا لهذا الكتاب أنه صرح بالأخذ عن الإمام محمد عبده عند تفسيره لقوله تعالى: وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا [النبأ: 9] قال: يقول الإمام الشيخ محمد عبده أن النوم هو الميتة الثانية، فإننا نشعر بالموت في اليوم والليلة في نومنا العميق لساعات طويلة. وهي الميتة النافعة لحياتنا في النهار ولرشاقة جسمنا التي تولد لنا الطاقة وتزيد لنا من الصحة والنشاط... (أبو بكر 1962: 327) وعند تفسيره للآية: أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ. وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ. وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ. وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ [الغاشية: 17-20] صرَّح بالنقل عن السيّد محمد رشيد رضا من تفسيره الشهير بالمنار. (أبو بكر 1962: 141)

ويؤيد هذا أننا نجده كذلك كان يستشهد بما حفظ من أبيات الشعر أثناء حديثه مما كان يستشهد به الشيخ محمد عبده أثناء حديثه عن نفس الموضوع في تفسيره. فعندما كانا يتحدثان عن حقيقة الرجاء في القرآن وهو توقع المنفعة من أسبابها، (عبده 2006: 4/ 573) استشهدا بالبيت:

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها * إن السفينة لا تجري على اليبس.

(عبده 2006: 4/ 573؛ أبو بكر 1962: 162) وكذلك عند الحديث عن قدرة الله جل جلاله ومظاهرها استشهدا بالبيت:

وفي كل شيء له آية * تدل على أنه الواحد.

(عبده 2006: 5/ 533؛ أبو بكر 1962: 177) وهذا الأمر يدل على قرب الشيخ من تراث الإمام محمد عبده وتأثّره به بالإضافة إلى مؤلفات أخرى في التفسير وغيره من أبناء هذه المدرسة.

خلاصة ونتائج

بعد هذه الدراسة المتأمّلة لمنهج الشيخ أبو بكر الأشعري وفكره في هذا الكتاب يمكن أن نسجّل أهمّ ما توصّل إليه البحث بما يلي:

أولا: إن الشيخ كان ملتزما في تفسيره بمنهجه العام في الإصلاح الديني والاجتماعي والدعوة إلى نهضة أمته وتقدم بلاده بالفهم الصحيح لآيات كتاب الله عز وجل والأخذ بتوجيهاتها والعمل بمرادها بما يتناسب مع الظروف الراهنة للأمة الإسلامية. فكما كان يدعو مجتمعه بهذه الأمور في عمله ودروسه ونشاطه اليومي كان تفسيره بمثابة مرجع أودع فيه كل هذه الأفكار والجهود يكون منارا لدعاة الإصلاح من أبناء شعبه يستضيئون به لمواصلة هذا العمل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ثانيا: إن المنهج الذي كان يسير عليه الشيخ في تفسيره هذا ينسجم تماما مع ما حدث على ساحة علم التفسير في عصره. والمتأمّل لأعمال أصحاب مدرسة تفسير الإمام محمد عبده يدرك هذا الأمر بكل يسر وسهولة. فروح تفسير الشيخ وإن لم يصرح بالمنهل الذي يرد منه لا يختلف عن روح تفاسير هذه المدرسة أمثال تفسير جزء عمّ لمحمد عبده والمنار لرشيد رضا والمراغي لأحمد مصطفى المراغي وغيرها، ويؤكد هذا تصريحه بالنقل عن الإمام محمد عبده والسيّد محمد رشيد رضا رحمهما الله تعالى كما أسلفنا. هذا بالإضافة إلى ما تحققنا من استفادته برأي الإمام محمد عبده في تفسير سورة الفيل واستشهاده بما استشهد به الإمام من أبيات الشعر. فبناء على هذه الدراسة المتأنية في تفسيره والنظر المتأمل في فكره وجهاده فإننا لم نتردد في أن نعد الشيخ من أعلام مدرسة تفسير الإمام محمد عبده في أرض ملايو.

ثالثا: إن كتاب تفسير ''إينتيساري تفسير جزء عم'' للشيخ أبو بكر الأشعري لم يزل ينفخ في قارئه روح الإصلاح وحماس الدعوة إلى الحق وجدية العمل لبناء حضارة الأمة والخروج من مذلة الجهل والفقر والمسكنة والتخلف والاستعمار الفكري والسياسي التي لم تزل هي سمة بارزة على الأمة الإسلامية في منظور منافسيهم إلى يومنا هذا. فالذي يقرأ هذا الكتاب يحس بضرورة العودة إلى نقاء الإسلام

وتقريب الصفوف وإحياء العمل الجماعي للقضاء على ما علق بالإسلام والمسلمين من تلك المذلة والقيام بالواجب الديني نحو التقدّم والتميّز كما حقّقه المسلمون الأوائل.

رابعا: إن هذا الكتاب ينبغي أن يعتني به الباحثون بالدراسة وإعادة تقديمه للنشر بصورة عصرية وتصحيح ما فيه من أخطاء مطبعية ليرى النور من جديد بعد نفاده من السوق وصعوبة الحصول عليه إلا في بعض المكتبات الجامعية والمكتبات الخاصة ليتم الاستفادة منه من قبل عوام الناس والمحبين لتراث علماء ملايو كما ينبغي أن يقرأ في الدروس للعوام أو حلقات متخصصة بين القائمين على العمل الإسلامي لتجديد النشاط وتبديد المشاق.

مصادر ومراجع

آبادي، شمس الحق العظيم. 1415هـ. عون المعبود شرح سنن أبي داود. بيروت: دار الكتب العلمية.

Adnan Bin Mohamed Yusoff. 2005. al-Imam Muhammad ᶜAbduh: Tokoh Pembaharuan Ilmu Tafsir. Tesis Dr. Fal, Jabatan Pengajian al-Quran dan al-Sunnah, Universiti Kebangsaan Malaysia.

Adnan Mohamed Yusoff, Khairul Anuar Mohamad, Syed Ahmad Tarmizi Syed Omar & Abdul Hafiz b. Haji Abdullah. 2005. Pengaruh Madrasah al-Imam Muhammad ᶜAbduh dalam Penulisan Tafsir di Malaysia. Kertas kerja Seminar al-Quran Peringkat Antarabangsa. Anjuran Fakulti Pengajian Quran dan Sunnah, Kolej Universiti Islam Malaysia. Kuala lumpur, 1920- Ogos.

ابن خزيمة، محمد بن إسحاق. 1970. صحيح ابن خزيمة. تحقيق د. محمد مصطفى الأعظمي. بيروت: المكتب الإسلامي.

Ismail Hj. Ibrahim, Ismail Abd. Rahman & Mat Asin Dollah. 1993. Syekh Tahir Jalaluddin. Dlm *Ulama Silam Dalam Kenangan*. Ismail Mat (pnyt.). Bangi: Penerbit Universiti Kebangsaan Malaysia.

أبو بكر الأشعري. 1962. إنتيساري تفسير جزء عم. فولاو فينغ: فرسام فريس.

Tajuddin Saman. 1993. *Tokoh Ulama Nusantara.* Kuala Lumpur: Berita Publishing Sdn. Bhd.

حجازي، محمد محمود. 1970. الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم. القاهرة: دار الكتب الحديثة.

Haron Din. 1993. Al-Syekh Abu Bakar al-Ash'ari. Dlm *Ulama Silam Dalam Kenangan.* Ismail Mat (pnyt.). Bangi: Penerbit Universiti Kebangsaan Malaysia.

الخالدي، صلاح عبد الفتاح. 1997. التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق. عمان: دار النفائس.

Syed Alwi al-Hady. 1999. The Life of My Father. In *The Real Cry of Syed Shaykh al-Hady.* Gordon, A. Kuala Lumpur: Malaysian Sociological Research Institute (MSRI).

شحاتة ، عبد الله. 2001. علوم القرآن. القاهرة: دار الشروق.

عباس، فضل حسن. 1997. إتقان البرهان في علوم القرآن. عمان: دار الفرقان.

عبد الغفار عبد الرحيم. د.ت. الإمام محمد عبده ومنهجه في التفسير. د.م: المركز العربي للثقافة والعلوم.

عبده، محمد. 2006. تفسير جزء عم. في: عمارة، محمد. 2006. الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده. مدينة نصر: دار الشروق. ج 5، ص533-532.

عبده، محمد. 2006. تفسير القرآن. في: عمارة، محمد. 2006. الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده. مدينة نصر: دار الشروق.

عدنان محمد يوسف وذوالحلم محمد نور.2007. الشيخ عبد الله الغدامسي ودوره في تطوير وازدهار مدرسة المشهور الإسلامية. في: الغرياني، عادل محمد عبد العزيز (محرر). بحوث الندوة العلمية حول الشيخ عبد الله الغدامسي المغربي ودوره في تطوير التربية الإسلامية في ماليزيا. كوالا لمبور: جمعية الدعوة الإسلامية العالمية بالجماهيرية العظمى وكلية دراسات القرآن والسنة بجامعة العلوم الإسلامية الماليزية.

الغرياني، عادل محمد عبد العزيز. 2007. الشيخ العلامة أبو جابرعبد الله بن أحمد الغدامسي ودوره في إثراء الحياة الدينية والتربوية في بلاد الملايا (1918-1945 مسيحي). في: الغرياني، عادل محمد عبد العزيز (محرر). بحوث الندوة العلمية حول الشيخ عبد الله الغدامسي المغربي ودوره في تطوير التربية الإسلامية في ماليزيا. كوالا لمبور: جمعية الدعوة الإسلامية العالمية بالجماهيرية العظمى وكلية دراسات القرآن والسنة بجامعة العلوم الإسلامية الماليزية.

Mohamad Redzuan Othman. 2004. Peranan dan Sumbangan Lulusan Mesir dalam Masyarakat Melayu. Kertas kerja Seminar Pemerkasaan Belia Islam Serantau. Anjuran YADIM, YPEIM, MBM, INMIND & ABIM Mesir. Kaherah, 2 Disember.

الندوي، أبو الحسن علي. د. ت. ماذا خسر العالم من انحطاط المسلمين. القاهرة: مكتبة الإيمان.

النيسابوري، مسلم بن الحجاج. د.ت. الجامع الصحيح. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

Dr. Adnan Mohamed Yusoff
Fakulti Pengajian Quran dan Sunnah
Universiti Sains Islam Malaysia (USIM)
e-mail: adnan@usim.edu.my